الحلقة الثانية والعشرون

جبران خليل جبران

ربما كان الشاعر الأديب والرسَّام العربي اللبناني المهجري الأشهر (جبران خليل جبران).. أكثر شعراء وأدباء العربية في الثلث الأول من القرن العشرين: «شفافية».. في ألفاظه، و«جرأة».. في أفكاره، و«ملحمية» في رؤاه.. حيث تمتزج العواصف والعواطف عنده، وهي تقيم فضاءً كونياً ملهماً.. يجد فيه كل فنان، وكل مبدع، وكل فيلسوف متأمل.. مبتغاه: فهو فضاء «روحاني».. إلى السماكين، و«ترابي».. إلى سابع أرض، لأنه فضاء (جبران) الفريد.. بـ «أشواقه» و«روحانياته».. بـ «مكابداته» وأحلامه.. بـ«لذائذه» ومراراته، بعد أن وجد صاحبه نفسه وهو في أول الطريق، «يسعى إلى مجد غير مجد الناس، وعظمة.. غير عظمتهم».. كما قال صديقه وصنوه، ورفيق الخمسة عشر عاماً الأخيرة من سنوات غربته في مدينة (نيويورك) الأستاذ ميخائيل نعيمة: أول من أرخ لحياته.. وروى قصته بعد ثلاث سنوات من رحيله..!!

* * *

لقد بدأت قصة حياة (جبران).. ليس في يوم مولده عام ١٨٧٣م بقرية (بشرِّي) الجبلية اللبنانية.. ولكنها بدأت في ذلك اليوم الخريفي من عام ١٨٨٥م وهو في الثانية عشر من عمره،

وقد قررت أمه الرحيل به وأشقائه الثلاث.. عن (بشرِّي)، وركوب البحر إلى آخر الدنيا.. إلى مدينة (بوسطن) على الشاطئ الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن ضاقت بها سبل العيش - آنذاك - في تلك القرية أو المدينة الجبلية الصغيرة.

لقد صور (جبران) تلك اللحظة بعد أن بلغ الأربعين.. في أجمل وأعظم كتبه: (النبي).. أروع وأجمل تصوير عندما قال بداية:

(كيف أمضي بسلام وبلا حزن؟ لا، لن أغادر المدينة بدون جرح في الروح.

(ما أطول أيام الألم التي قضيتها داخل أسوارها، وما أطول ليالي الوحشة. ومن ياتُرى، يفترق عن ألمه ووحشته دون حسرة؟

(كثيرة هي أشتات الروح التي نثرتها في هذه الأزقة، وكثيرة هي بنات حنيني المتهادي عارياً بين هذه التلال، فكيف لي أن أتخلى عنها دون عناء ولوعة؟

ليس رداءً ما أنزعه عني، بل جلد أمزقه بيدي.

لا، ولا هو خاطر أتركه ورائي، بل قلب طاب بالجوع والعطش)..!

ليختتم تصويره لتلك اللحظة.. وقد اقترب من سفينة الرحيل، فرأى أن بحارتها هم من أبناء وطنه.. فذابت نفسه شوقاً إليهم وهو يقول لهم:

(يا أبناء أمي القديمة، أيها الراكبون ظهر الموج، كم مرة أبحرتم في أحلامي. والآن تجيئون في يقظتي، وهي حلمي الأعمق.

متأهب أنا للرحيل، وتوقي نشر أشرعته بانتظار الريح. نَفَساً واحداً فقط أتنفس به في هذا الهواء الساكن، ونظرة محبة واحدة أُلقي بها إلى الوراء.

وعندئذ أقف بينكم، بحاراً بين بحارة)..!!

* * *

لكن حياته في «الحي الصيني» المتواضع في (بوسطن)، الذي اختاره له.. وجود نفر من السوريين واللبنانيين من أبناء جلدته.. لم تكن بأفضل من حياته في مدينته (بشرّي)، فعاد إليها بعد عامين.. ليدخل «مدرسة الحكمة» في بيروت، حيث أتم دراسته لمرحلة (الثقافة) – كما كانت تسمى آنذاك – ، ومعها كانت تتفتح براعم موهبته في الأدب والرسم، ليعاود (البحار) الصغير.. لعبة ركوب البحر ثانية وقد غدا شاباً في مطلع الشباب، ولكن إلى (فرنسا) هذه المرة.. لـ «دراسة» الفن في محرابه: «باريس».. مدينة الحرية والفن والجمال، فكان من حسن حظه.. أن اتصل بالرسام العالمي (رودان)، الذي تناول على يديه سلافة الألوان والخطوط، تلك التي تصنع البهجة حيناً.. وتسيل الدمع حيناً آخر، وهو يواصل كتابة ونشر شعره (المنثور) والجياش عاطفة، والمحتدم شوقاً حارقاً للحرية والعدالة.. في صحف سوريا ولبنان، ولذلك لم يكن غريباً.. أنه عندما غادر (باريس) وعاد إلى نيويورك (١٩١٢م) وهو في التاسعة والثلاثين من عمره وبصحبته العشرات من (لوحاته) أن يحتفي به المجتمع العربي الأدبي المهاجر إلى أمريكا والأمريكيون أنفسهم.. وهم يرون فيه (رسَّاماً) من طراز لم يألفوه، بينما كان

السوريون واللبنانيون يرون فيه (شاعراً) يبشر بمدرسة شعرية جديدة هي التي عُرفت فيما بعد: بـ «مدرسة المهجر» أو «شعراء المهجر».. التي تتلمذ على أسلوبها وفكرها ونهجها الحر الطليق العديد من أدباء العالم العربي وأدبائنا في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، لعل أبرزهم هو كاتبنا الكبير وأديبنا الفنان الأستاذ عزيز ضياء، فقد أخبرني وهو يروي لي أطرافاً من قصة بداياته، أنه عندما جاء إلى مكة قادماً من المدينة المنورة.. لزيارة مكتب صحيفة (صوت الحجاز) بعد نشرها لأول مقالاته، أنه لم يكن في حصيلته من النصوص الأدبية الحديثة.. غير ديوان «عواصف وعواطف» لجبران، الذي قرأه وأعجبه.. فحفظه عن ظهر قلب!!

* * *

كانت (نيويورك) التي عاد إليها (جبران) شاعراً شاباً.. ورساماً مفعماً بالأفكار والرؤى والأحلام، هي محطة انطلاقاته الكبرى، ففيها أنتج معظم شعره وكتب أجمل دواوينه: (عرائس المروج) و(رمل وزبد) و(المواكب)، وأوائل قصصه المثيرة في مواضيعها وعناوينها: (الأجنحة المتكسرة) و(الأرواح المتمردة)، وفيها تعلق بالفيلسوف الألماني (فريدرك نيتشه).. وما جاء في كتابه (هكذا تكلم زرادشت)، وفيها رأى مجدداً تلك المدرّسة الأمريكية (مسز ماري هاسكل) التي عطفت عليه ورعته طفلاً عند قدومه إلى (بوسطن) في رحلته الأولى، فتعلق بها وأحبها رغم فارق السن بينهما.. بل وعرض عليها الزواج، لكنها آثرت الصداقة على الزواج.. إلا أنها ظلت ترعاه بـ (وفاء) محبة وإخلاص (شقيقه)،

فكان أن أهداها قصته الأولى: (الأجنحة المتكسرة).. التي كانت وكأنها تروي قصة حبه لها، ولذلك لم يكن مفاجئاً أن يكتشف ورثته بعد موته وهو في الثامنة والخمسين من عمره.. أنه كان قد كتب لها (كل) موجودات مكتبه ومرسمه - أو «مُحْتَرَفِه» كما أسماه صديقه النعيمة -، بكل موجوداته من الكتب واللوحات ومشاريع الدواوين.. بل وقصاصات الأفكار والخطوط أو (الكناسة) كما كان يسميها الأديب المصري الرائع (يحيى حقي).!! فقد كانت (ماري) رغم فارق السن.. هي الحب الأول والحقيقي في حياته!!

* * *

وكما شهدت مدينة (نيويورك) أعظم أيامه.. عندما أجمع أدباء المهجر على اختياره وهو في السابعة والأربعين من عمره (عميداً) لـ «الرابطة القلمية» عام ١٩٢٠م التي أقامها رموز التجديد من شعراء المهجر وأدبائه ومفكريه من أمثال: إيليا أبو ماضي، وميخائيل نعيمة، وأمين الريحاني.. فكان قيامها ترسيخاً لمدرسة التجديد في الشعر والأدب، التي سرعان ما جعل منها (جبران) معادلاً مهجرياً شديد الجذب والتأثير على ناشئة الأدب.. أمام مدرستي (أبوللو) و(الديوان) القاهريتين.. الذائعتين في العالم العربي آنذاك.

.. شهدت (نيويورك) أيضاً.. أتعس أيامه وأكثرها ألماً وحزناً ودمعاً.. عندما فقد والدته، فشقيقه، فإحدى شقيقتيه.. على التوالي.. بداء (السل).. الذي كان كـ «الكوليرا» و«الجدري» آنذاك

قبل اكتشاف سلسلة المضادات الحيوية، ليكتب في شتاءات نيويورك وحيداً حزيناً.. قصيدته الجميلة الدامعة (سكن الليل):

(سكن الليل.. وفي ثوب السكون تختبي الأحلام
وسعى البدر.. وللبدر عيون ترصد الأيام)

ثم ثناها برائعته الفلسفية (أعطني الناي وغني)، التي يقول فيها:

(أعطني الناي وغنِّ	فالغنا خير الصلاة
وأنين الناي يبقى	بعد أن تفنى الحياة
هل جلست العصر مثلي	بين جفنات العنب
والعناقيد تدلت	كثريات الذهب
هل فرشت العشب ليلاً	وتلحفت الفضا
زاهداً فيما سيأتي	ناسياً.. ما قد مضى
أعطني الناي وغنِ	وانس داء ودواء
إنما الناس سطورٌ	كتبت.. لكن بماء)

فكان من حسن حظ الأغنية العربية.. أن يلتقط أولاهما الأستاذ عبدالوهاب، وثانيتهما الأستاذ نجيب حنكش.. ليقوما بتلحينهما وتسليمهما لـ «الرحبانية» ونجمتهما (فيروز).. لغنائها، فتجعلا منهما (سفرين) يضافان إلى أسفار الغناء العربي الخالدة في القرن العشرين، إلا أن ذلك لم يحدث - وبكل الأسف واللوعة - إلا بعد رحيل شاعريهما (جبران)، فلم ينتش بهما: (سماعاً).. كما انتشى بهما: (كتابة)..!!

* * *

عندما بلغ (جبران) الأربعين من عمره.. كان كل شيء قد أخذ يكتمل فيه: فكراً وأداءً وإنسانية.. حتى فاض إناؤه ليكتب، ولأول مرة في حياته بلغة غير لغة الأرض التي عشقها، والوطن الذي هام به، والدم الذي مازال يجري في عروقه، هي (الإنجليزية).. كتابه الأعظم: (النبي)، الذي أصبح بعد ترجمته إلى العديد من لغات العالم.. أشهر كتبه وأهمها، الذي يمثل بحق زبدة أفكار جبران وتجاربه ورؤاه، وحرقته وأحزانه وتطلعاته إلى عالم نضر شفاف يقوم في هذا «الوجود»..!!

كان الكتاب بحواراته الفلسفية، ورمزيته الشعرية الخلاقة.. يحلق في سماء الأثرة عند الأنبياء والنقاء عند الملائكة، وكأنه يعيد ولادة (جبران) من جديد.. (!!)، وأحسب أنه.. ولهذا السبب – وربما لغيره – تعددت ترجمات الكتاب إلى العربية.. بعد أن قدم مطران «الكنيسة الأرثوذكسية» في نيويورك (أنطونيوس بشير) أول ترجمة له في عام صدوره (١٩٢٣م)، ثم تبعه بعد ذلك بسنوات صديقه الأديب اللبناني الكبير الأستاذ ميخائيل نعيمة.. عندما قدم ترجمة جديدة له عن أصله (الإنجليزي) عام ١٩٥٦م، لكن الملفت في هذا السياق.. هو ترجمة أبرز وزراء الثقافة المصريين في عهد ثورة يوليو عام ١٩٦٦م الأستاذ والأديب الفنان (ثروت عكاشة).. الأمر الذي يعكس القيمة الحقيقية لهذا الكتاب.. وأهميته، إذ إن من الندرة.. أن تتم ترجمة الكتاب الواحد، ولأكثر من مرة.. عن أصل واحد..!

ومع ذلك..

عندما أرادت (دار النهار البيروتية).. أن تصدر سلسلة من نفائس الكتب العربية.. بحلة أنيقة تليق بها - عام ١٩٦٨م - كان كتاب (النبي) لجبران في صدر تلك السلسلة.. ليس بـ «إصداره» عن أي من ترجماته السابقة، ولكن بـ «ترجمته» مجدداً.. وللمرة الرابعة، وعن طريق أحد كبار أدباء لبنان الأستاذ يوسف الخال، الذي حرص على أن تكون ترجمته، هي الأقرب لروح (جبران) وأسلوبه الوجداني الرمزي.. نظراً لتلك الصلات والروابط التي تجمعه بـ (جبران): تلميذاً.. من تلاميذه، وحوارياً.. من حوارييه، وعاشقاً.. من عشاقه، وقد مكنته تلك الأواصر مجتمعة.. من أن يحصل على تلك اللوحات الستة عشر، التي كان جبران نفسه.. قد رسمها خصيصاً لكتابه هذا، فكان ضمها ونشرها وبألوانها الطبيعية.. إضافة تميزت بها نسخة (دار النهار) الباذخة أو نسخة (يوسف الخال) الرائعة التي قام بترجمتها.

ومع ذلك..

ليس كتاب (النبي) وحده.. ولا لوحات جبران التي رسمها له.. أو لتلك التي رسمها بين (باريس) و(نيويورك)، ولكن يضاف إليهما.. حياته، وتجاربه، ومعاناته، ومجمل أعماله الشعرية والنثرية.. هي التي حملت اسمه مجتمعة إلى منصات الخلود، حيث يجب أن يكون: نجماً لا ينطفئ وشمساً لا تغيب. وهو ما كان.

فعندما مات فجأة في (نيويورك) وهو في الثامنة والخمسين من عمره عام ١٩٣١م.. وحُمل رفاته ليوارى في مسقط رأسه

(بشرّي)، كان اللبنانيون.. عند مستواهم الحضاري المعروف عنهم، إذ جعلوا منزله متحفاً: فيضم «القبر».. رفاته، ويضم «المتحف».. أعماله، وقد تصدرته تلك الترجمات الأربعة لكتابه (النبي).. إلى جانب آخر ما خطه قلمه (آلهة الأرض) قبل ثلاثة أشهر من لحظات وداعه للدنيا.